على الغلاف

72 عاماً على النكبة فلسطين عصيّة على الاقتلاع

أرض المقدّسات

زياد منى

في ذكرى النكبة واغتصاب الحركة الصهيونية وحلفائها من الغرب الاستعماري ـــ وبمشاركة عرب «سايكس بيكو» وأعرابها ـــ أرض فلسطين، نود الحديث عن مكانتها في التاريخ العربي والإسلامي، عبر استعراض مختلف المقامات المقدّسة فيها، كما ترد في مختلف المصادر. وقد استعنّا في عملنا هذا بمراجعَ عديدة، منها مؤلّف «فضائل القدس» لأستاذ التاريخ والفكر الإسلامي في «جامعة سميث كولدج» الأميركية سليمان علي مراد، الصادر عام 2019 عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت والمكتبة الخالدية في القدس المحتلّة، إضافة إلى مؤلّف الطبيب الفلسطيني توفيق كنعان mohammedan saints and sanctuaries in palestine، 1927 / «الأولياء والمقامات الإسلامية في فلسطين» الصادر في القدس ـ فلسطين عام 1927، وكذلك المؤلّف الحديث ‹bones of contention: Andrew Petersen، muslim shrines in palestine / «رفات الخصومة: المقامات الإسلامية في فلسطين» الصادر عام 2018. وهدفنا هو إثبات المكانة العليا التي حظيت بها فلسطين في الفكر والعقل العربي والإسلامي عبر العصور، في الوقت الذي تحاول فيه مشيخات الخليج، والوهابيون، تشويه ذلك التاريخ ومسح أي مكانة لفلسطين في الوعي التاريخي العربي والإسلامي. وهذا أيضاً لفضح اللاهثين وراء تكريمات الغرب وجوائزهم الصدئة، والذين ينفون أي علاقة للإسلام والمسلمين، ليس بالحرم القدسي فحسب، بل بمكّة المكرمة أيضاً.

عندما نتحدث عن المقامات الإسلامية في فلسطين، ليس المقصود فقط مواقع معروفة مثل مدافن الأنبياء أو «الأولياء» بمعنى الأفراد الصالحين، بل أيضاً كلّ مكان من مزار وقبر وشجرة وجنينة وجَنْبَة وكهف ونبع وصخرة وحجر وتحويطة، لهم علاقة بموضوع المقال، سواء كانوا مقدّسين أم مرتبطين بخرافات وأوهام. لكن ليست المقامات جميعها تحظى بالمكانة العليا، حيث نرى أن قلّة منها تحظى بمكانة قدسية لدى البداة، لكن ليس لدى أهل البلدات أو القرى القريبة منها. وثمة مقامات تحظى بمكانة عليا في خارج فلسطين، كما سنرى لاحقاً.

أينما نظرت في فلسطين تجد أمكنة مقدسة: في القرى وفي الحقول وفي البراري، في الجبال وفي الوديان. وفي معظم الأحيان يعثر المرء على جامع قريب من المقام، حيث يتوافد المؤمنون إليه للتعبّد لله. فعلى سبيل المثال، نجد في قرية عورتا 14 مقاماً، 11 منها تقع في داخل القرية وثلاثة في خارجها، وهذا يتكرّر في قرى وبلدات أخرى مثل عناتا والعيسوية وقولونيا وغيرها. يلاحظ المرء أنّ المقامات عادة ما بُنيت في أعالي الجبال، كي ترى من على بعد، مثل النبي صموئيل والشيخ القطرواني والشيخ أحمد الكركي الطيار في قرية القسطل، وأبو هريرة في وادي الشريعة، والعُزير في عورتا والشيخ العُمَري في بيت عنان، حيث يمكن من هناك رؤية كل من يافا واللد والرملة وسهولها، وكذلك البحر الأبيض المتوسط، والمصعد في جبل الزيتون والشيخ جراح بالقرب من مدينة القدس، ومقام الخضر في نابلس مكتوب داخله: «عُمِّر هذا المسجد أيام السلطان الملك سيف الدين قلاون الصالح عزّه الله ووالده السلطان الصالح علا الدين عز نصره».

أي إنه تمّ اختيار أمكنة المقامات قرب القرى، ولا يعني ذلك إطلاقاً أنّ التل أو الهضبة أو الجبل مقدّس. أما إذا وقعت في أراضي منخفضة، مثل عند تقاطع وديان أو ينابيع أو جداول، فيتم إقامتها في أمكنة يراها الناظر من مسافات بعيدة، بما يؤكد وظيفتها الاجتماعية أيضاً، إما لاستراحة المسافر أو لتناول الطعام، وتُعرف باسم «المضافة»، وهكذا. فعلى سبيل المثال، نجد في مقام أريحا حسن الراعي، بالقرب من النبي موسى، النقش الآتي: «أنشأ هذه القبة المباركة علي حسن الراعي قدس سره صاحب الخير محمد باشا حين أتى من استقبال حجاج المسلمين فشرع في البناء فلم يلقَ ماءً فبعلو همته حفظه الله تعالى نقل الماء على البلد من قرية أريحا وحصل الثواب سنة 1 ربيع عشر وماية وألف». كما يلحظ المرء أنّ قبور الرجال الصالحين تقع في أغلب الأحيان وسط المدن أو البلدات، مثل مقامات الطور (6) وأريحا (6)، ومنها «النبي موسى» وشعفاط (4) وصور باهر (4) وعناتا (7).

وثمة مقامات قرب مواقع أثرية، مثل القطرواني بالقرب من كنيسة على تخوم قرية بير زيت، وذو الكفل بالقرب من خربة الكفيرة ومقام عبد العزيز الواقع بين قريتي القسطل وبيت سوريك، إلى جانب نبع عتيق وفق علماء الآثار، وقبر ستنا الشامية بالقرب من نبع عتيق، وفق المصدر نفسه. هنا وجب لفت الانتباه إلى أن الأشجار القائمة إلى جانب المقامات ليست مقدسة بحد ذاتها، وإنما تنال مكانتها من المقام. ويلاحظ أنّ فائدة بعضها غذائي مثل أشجار التين والصبر والرمان والجميز والدوالي والخروب وغيرها.

كذلك، يعثر المرء على مقامات عبارة عن حجارة مرتبة على شكل دوائر تسمّى الحويطية ومفردها الحويطة (انظر التعبير الشعبي: حوطك بالله)، ومنها حويطية الشيخة امبركة في قلنديا والشيخ فرج في بين حنينا. ومن الجدير بالذكر هنا، وجود حويطية مسيحية مشابهة، ومنها على سبيل الذكر المرتبط بالنبي الخضر (st. george) بالقرب من بيت جالا. وثمة حويطية أخرى هي النبي دانيال تقع وسط كرم بين قريتي الخضر وأرطاس.

ويعثر المرء أيضاً على ينابيع تحظى بمكانة عليا لدى السكان، ومنها عين الشريف وعين إم دراج في سلوان، وعين الحمّام في القدس وعين النوباني في نابلس وعين الجوز في رام الله وعين أرطاس في القرية بالاسم وعين عونا (st. mary) في بيت جالا وعين الحجر في دير الغسّانة، وحمام الدرادجة في نابلس ومرتبط ذكره بالنبي الخضر، وحمام ستي مريم مرتبط بالسيدة مريم العذراء، وحمام الشفا، وبير أيوب المرتبطين بالنبي أيوب، وبير سنجيل المرتبط بالنبي يوسف، وعين كارم المرتبط بالسيدة العذراء، وهكذا. إضافة إلى ما سبق، ثمة أشجار مرتبطة باسم نبي أو رجل صالح، منها زيتونة النبي في حرم الشريف ونخلة مار سابا وشجرة زيتون في الجثمانية وشجرة زيتون في بيت ساحور. ومن الجدير بالذكر وجود مقامات حظيت بدعم سلاطين مختلفين، ولكن نكتفي بما سبق ذكره ونوجّه نظرنا نحو مقامات إسلامية أخرى، ومنها الصوفية والبهائية والشيعية والدرزية.

أشار الجغرافي العربي الدمشقي (1256 ـ 1327) إلى «مشهد النصر» أعلى جبل حطين، حيث بني في عهد الناصر صلاح الدين قبة تسمى قبة النصر، لتخليد انتصاره على الفرنجة في معركة حطين. وثمة شهادة من حجاج مسيحيين على وجود ذلك النصب، الذي بقي قائماً حتى القرن التاسع عشر. أما المقامات التي حظيت برعاية سلطانية الظاهر بيبرس، فهي النبي موسى في غور الأردن، ومقام أبي هريرة في يبنة، وحرم سيدنا علي في أرسوف، حيث صلى الظاهر بيبرس في المكان، ونذر أن يرعاه في حال انتصاره على الفرنج. أما الزوايا الصوفية، والتي تسمى أيضاً رباط وخَنَقَة، فثمة العديد منها، علماً بأنّ فلسطين كانت مقر ما لا يقل عن 11 طريقة، منها القادرية (محمد أبو العون ـ ثمة مسجد باسمه في مدينة الرملة ويضم رفاته ورفات زوجه)، والتي جلبها شهاب الدين أحمد المعروف أيضاً باسم ابن أرسلان، والرفاعية والدسوقية والأحمدية والشاذلية واليونسية والمولوية وغيرها. وثمّة أيضاً مقام دير الشيخ في وادي النسور جنوب غربي مدينة القدس، الذي يحوي رفات السطان بدر، وكذلك مقام اليشرطية في عكا، ومقام الصحابي أبي عبيدة في عمواس حيث توفي أيام الطاعون الذي انتشر في البلاد حينئذ.

أما المقامات الشيعية، فمنها المشهد الذي أقيم في عسقلان لوضع رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما، والذي استشهد في كربلاء في العاشر من تشرين الأول / أكتوبر عام 680، لكنّه أرسل إلى دمشق حيث حفظ في الجامع الأموي بالقرب من رفات النبي يحيى أو يوحنا المعمدان. وثمة مقام النبي يوشع الواقع في شمال فلسطين بالقرب من الحدود اللبنانية.

أما المقامات الدرزية، فمنها مقام النبي شعيب الواقع قرب حطين. وثمة رواية بأنّ صلاح الدين الأيوبي أمر الشيخ عماد الدين، أحد أبناء الحكام الفاطميين، برعاية المقام الذي زاره العديد من المؤرّخين والحجّاج والجغرافيين العرب وغير العرب. وثمة مقامان بهائيان رئيسيان في فلسطين، هما قبر بهاء الله في عكا وقبور عائلته، وقبر الباب علي محمد الشيرازي. وثمة مقامات أخرى قام العدو الصهيوني بتدميرها، في عام 1948، وما بعد ذلك، ومنها مقام النبي الكفل، ومقام النبي بولس وغيرهما.

نكتفي بهذا القدر، علماً بأن المراجع تحوي عشرات المواقع الأخرى، وحتى صوراً لها ومخططاتها. ما يهمنا ختاماً، توضيح أنّ فلسطين، أرض المقدّسات، حظِيت بمكانة خاصة لدى العرب والمسلمين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، نجد عرضاً مفصّلاً لها في مؤلّف «فضائل القدس» الآنف الذكر، وليس بإمكان أيٍّ كان أن يجرّدها من موقعها التاريخي، الضاربة جذوره في عمق تاريخنا.

> أينما نظرت في فلسطين تجد أمكنة مقدسة: في القرى وفي الحقول وفي البراري في الجبال وفي الوديان

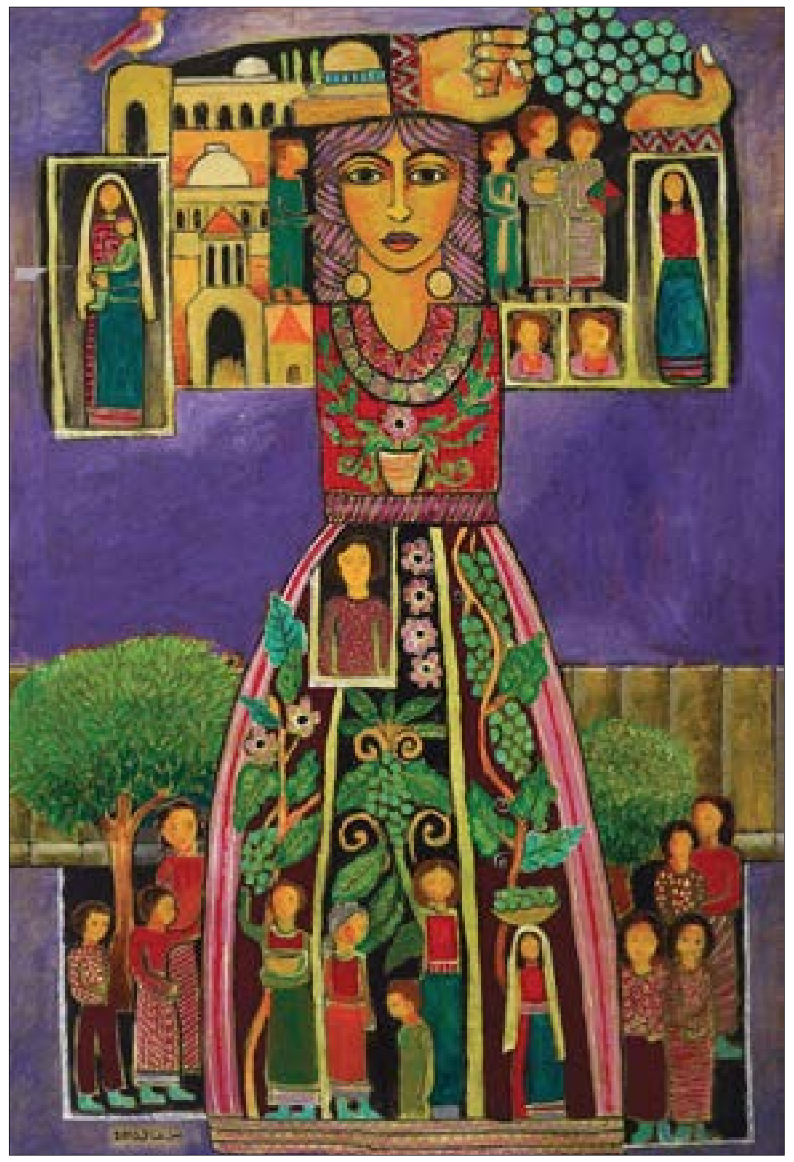

«الأيقونة الفلسطينية» (2010)، لوحة للفنان الفلسطيني نبيل عنّاني، أكريليك على كتّان، 75،5x112 سنتم

شهادة

طريق المدرسة... طريق القدس

رزان حلبي *

هي ليست البداية، لكن من هنا سنبدأ. سنبدأ حيث الذاكرة استوقفتنا، الطفولة التي أبت أن تنتهي تفاصيلها لتتحوّل إلى ذكريات، ذكريات ليست بذكريات بل حاضر ويبدو أنها ستكون المستقبل. سنبدأ من طريق المدرسة العجيب. لم أعتد حياة ذات حلول وسطى، فكانت خيارات والدي دائماً صعبة، ومنها اختيار مكان السكن القريب البعيد. قريبٌ لكونه في محيط القدس، وبعيدٌ لأنه أصبح كذلك في ما بعد، نتيجة ألوان رمادية وُضعت وصعدت فجأة.

كانت حياة طبيعية، ولم أشعر يوماً أنها غير ذلك، لأن عصافير الأقفاص، بعد اعتيادها عليها، لن تتخيّل حياة عصافير السماء. وكما الجنة، لا عين رأت ولا أذن سمعت، حتى لو لم أوافق على هذه الجملة يوماً. ربما الغربة كانت أسوأ أقداري، كانت الحقيقة المرة، كانت الاكتشاف البائس، وربما لحسن حظ ما تبقى لنا من حياة أن نكتشف ذلك حتى ولو متأخرين. لم أعِ يوماً أنّ حياة كتلك، غريبة عن أي حياة نظيرة، فهي لم تكن حياة تقليدَية، بل ربع حياة مشوّهة، لنضحى بعدها، ومن عيون منطاد يوم الجمعة الأبيض، الذي يصوّر القدس من أعلى، عالقين بين شطري حياة، شطري واقع، وشطري حقيقة، حقيقة القدس وحقيقة ما وراء القدس. ذلك الذي يلبس كنزة ذات رقبة (كوروليه) وثلاث كنزات صوفية من بعدها وسترة شتوية من فوقها! يحمل تلك الأقمشة على جسده متنقّلاً بين البيت وخارجه، في زيارة لصديق، لقضاء الحاجة، مقابلة عمل، في البرد والحر صيفاً وخريفاً وشتاءً وربيعاً، في المدرسة والجامعة ثم العمل! هو نحن. تولد كذلك، ليتم إعدادك للموت كذلك أيضاً. فتضحى شيئين، شيئاً ذا مشاعر مقت وضيق، مقابل شيء آخر بارد فاتر من دون أي ردود فعل. شخصية بائسة مركبة متناقضة غير مفهومة، تعتاد ما بين ساعة ونصف إلى ساعتي طريق يومياً للوصول إلى عتبات المدرسة، كما تعتاد الانتظار على نقاط تفتيش مقيتة، وتعتاد أن تجد طريق المدرسة مغلقاً فجأة، لتبدأ رحلة البحث السريع عن طريق التفافي بديل!

كنت أستغرب عدم اكتراث أبي، غير الصبور، بشرطي السير عند إشارة مرور كركشيان، الذي يترك الطريق لأسراب سيارات غربي القدس، وإن لم يصح التعبير، موقِفاً لأجله مساراً ذا إشارة خضراء، مليئاً ببؤساء من الهندي الأحمر. تعلّمنا في الصغر أنّ الكذب رذيلة، فكان وصولي إلى المدرسة بمعدل 3 أيام أسبوعياً متأخرة عن موعد الحصة الأولى، يحتاج إلى تنويع في الأسباب، لكون السبب الحقيقي غير منطقي لتكراره. فقد عشت في بلدة خلف حاجز عسكري دائم، ومدرستي في وسط القدس. تمنيت يوماً لو أن مدرستي داخلية، لكن رُبّ ضارة نافعة، فقد غذّى ذلك خيال أفكاري، عبر مغامرات طريق البيت والمدرسة والعكس. تغيّر طريق مدرستي عشرات المرّات، ليعود فضل رحلات أعرف بلدك إلى من احتل أرضي، ولو يعلم ماذا فعل! فاكتشفت بفضله الوديان والجبال وبعض أنواع الحيوانات كالغزلان البرية والواوي، واستنشقت لأجله، أيضاً، روائح عديدة من طبيعة وأشجار وربيع إلى فضلات إنسان وحيوان، ثم قنابل غاز مسيّل للدموع بتطور أنواعه، حتى نمّى ذلك لدي حاسة الشم التي يشهد لي الكثيرون بها اليوم.

ولعلّ أمرّ الحقائق التي تجاهلناها مطولاً، عن دراية أو غيرها، أنك تولد وتكبر وتترعرع في القدس، ولا ترى القدس، فتنشأ بعيداً عن باقي تفاصيلها وعطورها وزواياها. وكأنّ جداول نهاراتنا تمنهجت بشكل يضع تفاصيل نهارنا في قوالب حقيرة، والتي بدورها تجعل «حرية» الفرد محصورة في مساحات ضيّقة بين البيت والمدرسة أو العمل كحد أقصى. أغار من صديق فرنسي يخبرني عن أماكن زارها في القدس لا أعرفها! كما تضيق نفسي عند معرفتي بصديق آخر طار فوق سماء قدسي، كما عزّ علي استكشاف باقي تفاصيلها بعد 25 عاماً من الدراسة والعمل فيها. فللواقع، نحن نعيش في غيتوات نفسية كل في عالمه، نتنقل في حدود جُدُر وهمية تشكلت نتيجة سياقات اجتماعية وسياسية ننشأ فيها. تنشأ مع تصورات للعالم لا تشبه العالم في شيء، ومع بديهيات إنسانية لا تمت بصلة إلى ما يواجهه الآخر في الخارج، تشوّه دواخلك كما تعيق تواصلك مع المحيط القريب. تضحى فاتراً بارداً مكبوتاً ذا ردود فعل خجولة تجاه الرجل الأبيض، مقابل قنابل موقوتة مع من تتشابه معهم في الظروف. فالقدس، هي التفاصيل، الزوايا والعطور والهواء والطفولة والذاكرة والحاضر والحنين والأنا، والوطن! هي الحياة الكاملة الناقصة! هي السهل الممتنع!

كنت أتنقل يومياً بين شطري حياة، حياة ملوّنة نسبياً، مقابل حياة رمادية بعد عدة أمتار من عبور أحد الحواجز. بين شطري منطق لا يمُتّان إلى المنطق بصلة ويفصلهما رماد. فالقدس كهالة كاملة، هي النكبة غير المنتهية والمستمرة بالتشويه. نعيش ربع حياة، لنقضي أرباعها الباقية ضائقين ذرعاً بأكوام الملابس التي نحملها على أجسادنا! نكبات منها ما وعيناه وشهدناه ومنها ما لم ندركه لشدة قربه إلينا. فكم نحتاج إلى عيون معلقة في السماء تُرينا الواقع كما يجب أن نراه، وليس كما نعتقد أنفسنا أننا نعرف. تعيش القهر بين مدرك وغير مدرك، وتعيش شبه حياة من دون أن تعيَ شكل الحياة الكاملة، فتعتاد حياة الشبح، تعتاد الرفض والعجرفة والدونية والتجاهل والعنصرية واللاوجود من دون أن تشعر، تعيش على مقاربات بينك وبين أقرانك وراء الجدار، فتكتفي، لأنك وبطبيعة الحال، «أفضل» لا أعلم بماذا! ربما أقل بؤساً أو أكثر، إلى أن تُطالب في نهاية المطاف بتفكير منطقي ذي حلول منطقية!

فهذه القدس، ذات الحركة الدائمة الدؤوبة، ذات الثابت الوحيد والألف عامل متحرك. هي الماضي والحاضر، هي الأم الثكلى، هي الطفل اليتيم، هي أم الموجوع، هي العيد والموت، هي الصحة والمرض، هي الغصة والأمل! هي الحب، هي نحن! ولن يبقى الثابت إلا بتحولنا إلى ثوابت، وبإدراكنا لقضيتنا الثابتة، ووعينا لمصيرنا الحالي والقادم، وبحفاظنا على هُوية جامعة غير مفرّقة! لنُسعف ما تبقى لنا من قدس. فمرة أخرى وتكراراً لعنوان سابق، نحن في القدس بخير، فماذا عنكم أنتم؟

* باحثة من القدس

كي لا تكون الآن نكبة

من ذاكرة النكبة: نساء وأطفال من احدى القرى الفلسطينية على درب الهجرة الطويلة (ارشيف مجلّة «تايم»)

كمال خلف الطويل *

لعلّ من بين كلّ أعوامها السبعين ونيّف، لذكرى نكبة 1948 هذا العام بالتحديد، مذاقٌ مغاير... لماذا؟ نظرة طائر على فلسطين وما حولها، عند ذكراها الحالّة، تُري الناظر حزمة مشاهد كونية وإقليمية ومحلية، فيها من التداخل ما يوجب استدخالها في استشراف طيّات القادم:

1 ـ شلل «كوروني»، جزئي أو نسبي، لقدرات القوى الكبرى في خوض صراعات حاميةٍ أو حتى فاترة، سواء بينها أم بين حلفائها الإقليميين، وانعكاس ذلك على مسرح الحوادث تهدئةً أو «تباعد» اشتباك.

2 ـ تداعٍ اقتصادي يعمّ المنطقة، بفعل عاملَي سقوط سعر النفط والوباء الـ«كوروني»... لا يوفّر غنيةً أو فقيرةً من كياناتها، بل ينيخ بكلكله على مستقبلها، القريب منه والبعيد.

3 ـ ميزان قوىً رجراج في المنطقة، لا يسمح لقوة إقليمية بحسم الصراع لصالحها على حساب غيرها:

إسرائيل، أعجز عن كسر إيران، أو حليفاتها، حتى إن قدرت على إيذائها سورياً، وقدرت راعيتها، الولايات المتحدة، على إنهاكها بحصار العقوبات. في المقابل، نراها تتحضّر لالتهام جغرافيا القدس والمستوطنات والأغوار، بالتواطؤ مع الدولة الأميركية الترامبية، تحت اعتقاد أنّ جو الوباء كفيلٌ بشلّ أحدٍ عن فعل صدٍّ أو منعٍ أو كبح.

تركياً، غير قادرة على إنفاذ رغائبها في الشمال السوري، من دون تمكين روسي وسكون أميركي، ناهيك بانكشاف اقتصادها أمام غائلة غارات خصوم الخليج وغيرهم، بسعي ضرب اقتصادها ولَيّ ذراعها استراتيجياً. في المقابل، نراها تعوّض محدودية نجاحها السوري، عبر العقد المنصرم، بمطاولةٍ عابرةٍ لشرق المتوسط، و«متشاطئة» مع ليبيا غازاً ونفطاً.

السعودية، مكسورة في أعزّ ما تملك: مال النفط؛ مستنزفة بعبثها الحربي في اليمن، قليلة حيلة أمام من تعتبره خصمها التليد: إيران، وخاسرة في الشمال العربي. في المقابل، هي بين بين في الساحة الليبية، وممسكة بأعنة القرار المصري، بالشراكة مع حليفتها الإماراتية.

إيران، محاصَرة حتى الثمالة في معاشها، معوقة سورياً، متساكنة مع شيطانها التليد في العراق، وحتى لبنان، ومحاطة بسوار قواعد أميركية في البر والبحر. في المقابل، عندها من مقدرة المصابرة والدفع ما كسر مشعر غينيس.

طيّب، لنرَ كيف هو المؤثر الدولي عندنا: في الخلفية شبح الوباء المقعِد، للكل. هذا في عموم. أما في خصوص، فلم يعد هناك ما تستطيع الولايات المتحدة فرضه بالقوة، لا بل إنّ عملية إعادة تموضع لقدراتها قد بدأت قبل الوباء، وها قد تسارَعت بعده، محفّزةً بنتائج ما سبق من فرط تمدد، بدّد 8 تريليون دولار في مجروره، وبدّد معه عشرية بكاملها، هي أولى عشريات القرن. والشراكة الروسية ـ الصينية ما زالت أقدر على الإعاقة منها على الفرض، سواء بالاختيار صينياً ـ وهو الآن آيل ـ أم بالاضطرار روسياً.

كيف ينعكس ذلك كله في، وعلى فلسطين الآن؟ من منظور اليمين الإسرائيلي (وإسرائيل كلّها الآن يمين... لكنّه قبلي ومحترب، فتوراً الآن وربما سخونةً ذات وقت)، ورديفه الترامبي، فشلل الوباء سانحٌ لقفزة ضمٍّ ما فتئ الأول يتلمّظ عليها لعقود، ويعقد الثاني عزمه على نصرته، إنْ من زاوية تمكين إسرائيل وكيلاً إقليمياً، أم لجهة تلبية مطلب بيئته الانتخابية المزمن... هذا في النية. طيّب، ما هي فاعلةُ الإقليميات الثلاثة، سوى إسرائيل... والكونيتان، سوى الولايات المتحدة... وأضيف، أوروبا؟

برغم إقعاد الوباء العمومي، إلا أنّ الإقليمي الأكثر فعّالية فلسطينياً هو إيران، وعلى مسارح متعدّدة: سوريا ولبنان وغزة. ذلك أنها، ببساطة، من انكبّ ـ وما انفكّ ـ على بناء منظومة صاروخية، نوعية كما كمّية، عبر الشمال العربي، مع صلةٍ بغزّة، وعبر سنوات سبع ونيّف، صارت توفّر قدرة ردع ما قبل ـ متكافئة، وتكاد تشطب قدرة إسرائيل على شنّ حرب هجومية على المحيط. لكنّ إيران وحليفاتها، لم تبلغ بعد حدّ القدرة على كبح نية إسرائيل ضمّ نصف الضفة الغربية. ما الذي ينقص؟ غياب شريك عربي مركزي، واضطراب العلاقة الإيرانية ـ التركية سورياً، وافتقاد سند دولي فارق.

أين السعودية اليوم؟ هي تجرّب رفقة طريق مع إسرائيل، بظنّ أنْ تقيها من «غائلة» إيران، في مقامرة غير محسوبة للتيار المتنفّذ في العشيرة الحاكمة، وكفيلةٍ، مع انكسار «رؤية» هذا التيار، بنضوب خزائنه نفطياً وشعائرياً، وبخسائره اليمنية الفادحة، أن تهزّ الأرض من تحته، بغضّ النظر عن أي أثر لغواية اللهو والمِتع بعد طول تضييق. ذات الحال يسري على محيطها، وعلى «مصرها».

وبعلم أنّ تركيا، مِثلها مثل إيران، لا ترتفع مقاماً كقوة إقليمية إلا بخفض مقام إسرائيل، وبه فقط تصبحان «عُظمَيين» لا عاديتين... إلا أنّ إشغال تركيا نفسها في متاهةٍ سوريةٍ من صنع يديها، وبخطايا حساب أحمق أجراه صنّاع قرارها في خريف 2011، قد كفّ قدرتها على أن تكون وازنة كفايةً قبالة إسرائيل فلسطينياً، رغم اشتغالها على الناحية العقارية في القدس وغيرها، وبحساب عونها السياسي والإعلامي. ما تحتاج إليه هو أن تدرك، لتوّها، مركزية تنزيل إسرائيل من عليائها، عن أي شأن مشرقي آخر. لقائل أن يقول: وكيف لتركيا أن تفيق إلى واجبها الفلسطيني وهي مكبّلة بقيود ناتوية؟ والحال أنْ ليس من قيود تكبّل، وصفقة «س 400» شاهدة.

في الكوني، هناك مسألة أقيس عليها ابتداءً: لا ترى إسرائيل في روسيا أو الصين، حليفاً أو شريكاً أو صديقاً. من ينفرد بامتلاك هذه الصفات وأكثر (الراعي)، هي الولايات المتحدة. روسيا والصين، هما عند إسرائيل مشروعا تنافع، وفي حالة روسيا بالذات طرفٌ تدير معه ترتيبات منع اشتباك... ولا تني الولايات المتحدة تذكّر إسرائيل بسقفها الواطئ لمنسوب التنافع. كلتاهما ترى في ضمّ نصف الضفة، تخريباً لحلٍّ في فلسطين طالما تاقتا إليه، وعسفاً وخيماً بظلامة شعبها لن يلبث أن يوقد النار في غرب آسيا. لكن تنطّحهما لدور معيق، يحثّ من جموح الولايات المتحدة، لا يتصلّب عوداً إلا باستناده إلى جدار إقليمي صلد، أي تركو ـ إيراني، والذي صار أكثر إمكانية وسط تحديات الوباء واصطفافاته. يُضاف إلى ذلك، توق الصين بالذات إلى تعرّض «إيجابي» للولايات المتحدة، وليس أعزّ من جبهة لها من إسرائيلها، سيما وأمر خسفها الصلة الصينية ـ الإسرائيلية صار في التداول. أوروبا الرسمية، في المقابل، لا تجيد إلا الخنوع أمام الأميركو ـ إسرائيلي عند الحزّة واللزّة، لكنّ مجتمعاتها في مكان آخر، وسيحفزها في الضغط على رسمياتها شعورها أنّ تماسك المحلّي والإقليمي والأوراسي يتجسّد.

طيّب، هل لقوى الضفة ذاتها من وزن في هذه المعادلة؟ يصح القطع بانعدام ثقة الشعب الفلسطيني في الضفة بقياداتها المتنفّذة، بل وفي ذلك سر تورعه عن إلقاء ثقله في الصراع ثانيةً، طالما تثقل كاهله وتعوق فطرته. شرط عودته ليصبح الرقم الصعب في معادلة الصراع، اضطرارها أن تنزاح عن طريقه، بما فيه نزع قيد أمنها عن رسغه، وإخلاء حاجزه الحارس للاحتلال، وتحوّلها إلى محض سلطة بلدية محلية لا صفة سياسية لها. أول الأوليات، ألا تُترك لتقع في درك غواية الترامبية لها بالتقدّم بمقترح بديل، بل أن تُجبر على التمنّع، ولو اللفظي. إنّ هناك الآن فرصة من أشهر، ألحظ بصددها العوامل التالية:

المؤسسة الأمنية ـ العسكرية لإسرائيل خاشية ومحذّرة من عقابيل الضمّ. محميات مصر والخليج تتوسّل براعيها الترامبي، أن يتمهّل في الإذن بالضمّ خشية ما يفرز من عواقب. منظومة الأمن القومي الأميركي تعارض وتُنذر. اليهودية الأميركية منشرخة نصفين، أحدهما معارض. الأردن يتحسّس رقبته. أوروبا تضرب كفاً بكفّ، فما غرب آسيا إلا رمية حجر. وعليه، فما كان من ضوء أخضر صار أصفر.

طيّب، كيف نحوّل الأصفر إلى أحمر؟ نقطة البداية هي عند «نخب» كلّ فلسطين، فإن التقت على قاسم مشترك أدنى، من دحر الاحتلال واستعادة الضفة، وفق برنامج عملاني، وأطلقت دعوة تقريب «سوري» بين إيران وتركيا يوقف الحرب، وبرهنت لنفسها أولاً، ثم لإيران وتركيا، وخلفهما لروسيا والصين، أنها رافعة داخلٍ وطوق، فتكاملت بها وبهم أساسات سندٍ من فولاذ، صار لزوماً للأطراف الإسرائيلية والأميركية والأوروبية أن تشعل الأحمر.

ولكن... إن أضعنا هذه الأشهر الدانية، فنكون كمن جدّد النكبة.